تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين من القرن (1-4هـ /7-11م):

د. عبد الله سالم مُحَمَّد بازينة

مقدمة

اهتم الانسان بالتاريخ منذ القدم ، وكان تفكيره وقتها أسطورياً ومع تقدم اكتسابه التجارب تطورت حياته و تقدمت وسائل التعبير عن أفكاره ومعتقداته وأسلوب حياته حتى حدثت طفرة عظيمة في فكره التاريخي ، والذي كان ولا يزال يحتل أهمية خاصة في تكوين الشخصية، فهو بما يحتوى على مظاهر الوحدة والتنوع يؤكد على ترابط واستمرار الأمة عبر العصور بكل قيمها ومثلها وإنجازاتها في السياسة والحرب والحضارة والنظم، تلك المنجزات التي ظهرت طبيعتها الانسانية من خلال انتفاع الشعوب من بعضها البعض .

ويُعد التاريخ من أهم ميادين المعرفة التي اهتم بها العرب وتدارسوها وألفوا فيها ، ويرجع اهتمامهم بها إلى ما قبل الإسلام حيث كانوا يعتقدون بأهمية الدم في تقرير خلق الإنسان ، ويؤمنون بأن أعمال الآباء والأجداد تسبغ على الأبناء مكانة في المجتمع ، وهذا ما دفعهم إلى الاهتمام بالنسب وحفظ شجراته وتدارسها ، وهو ركن مهم من أركان التاريخ .

وتعد العناية بالتاريخ عند العرب إحدى الوسائل التي اعتمدوا عليها للتأكيد على هويتهم، وإبراز شخصيتهم بين الشعوب، فكان هناك قصاصون يروون أيام العرب وأخبارهم ويحفظون أنسابهم ويفخرون بها، ولم يكن التدوين في الصحف أو النقوش معدوما، فقد ترك اليمنيون سجلا دونوا فيه أخبار ملوكهم ودولهم وهجراتهم وحروبهم مع الأحباش وعلاقتهم بالفرس لكن الرواية الشفوية بقيت الغالبة.

وبظهور الإسلام بدأت نظرة جديدة للتاريخ، فقد جاء القرآن بقراءة جديدة للماضي، وأشار إلى ذكريات العرب، وعاد إلى بدء الخليقة، وأكد على أمثلة التاريخ الغابر وعظاته، كما ذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة للتأكيد على العبر الدينية والأخلاقية التي تنطوي عليها، كما جاء بنظرة شاملة للتاريخ، تتمثل في عالمية الدعوة الإسلامية، فالإسلام أنزل للناس كافة، ومن ثم فإن السنن المسيرة لحركة التاريخ لا تقتصر على شعب دون شعب، كما طرح فكرة احترام الماضي باعترافه بنبوات الأنبياء، كما طرح التطلع إلى المستقبل وربط بين طبيعة تصوره للماضي وأفعال الإنسان في الحاضر وذلك عندما

حدد مسئولية البشر وحرية إرادتهم فيما يصنعون بحيث يصبح التاريخ الإنساني من صنع الإنسان وإبراز قدرة الإنسان على صنع مصيره[1].

وللبحث أهمية تتمثل في كونه يتناول المعرفة التاريخية والتدوين التاريخي وتطوره عند المسلمين من القرن الأول إلي القرن الرابع الهجريين ،حتي أصبح علماً مستقلاً عن العلوم الإسلامية الأخرى، والتي يمكن أن نعده انبثق منها، علما له علماؤه ومناهجه وأهدافه وأسلوبه .

وسيكون **الهدف من الدراسة** تناول الكتابة التاريخية وتطورها عند المسلمين وكيف بدأت الكتابة التاريخية عندهم بتقديم الأخبار الطوال حول تاريخ العرب، واعتمادها علي الروايات المتواترة شفوياً، وسيادة عنصر المبالغة والخرافة ،ثم اتجاه الإخباريين في جمعهم للمادة التاريخية إلي الروايات العائلية والقبلية .

_ كما تهدف الدراسة إلي تتبع التطور في الكتابة التاريخية حتي أصبح الاتجاه الإسلامي واضحاً فيها وأصبحت العلاقة بين الحديث الشريف والتاريخ وثيقة ،حيث أن التاريخ كان في البداية جزءاً لا يتجزأ من علم الحديث، وتهدف الدراسة أيضاً إلى الكشف عن بدايات التأليف التاريخي بمعناه الدقيق واخذ علم التاريخ استقلاله عن العلوم الإسلامية، بزيادة جوهرية في حجم المادة التاريخية وكثرة مصادرها وتنوع موادها واتساق مناهج تأليفها، حتى شهد القرن الرابع اكتمال نضوج الكتابات التاريخية وانفصالها عن علم الحديث وتخليها عن طريقة المحدثين في التوثيق ، وامتزاجه في عناصر ثقافية أخرى كالجغرافيا والفلسفة والفلك وغيرها وكيف عمل المؤرخون على تبيين مضانهم في مقدمات كتبهم أو في طليعة روايتهم للخبر . **ولكن كيف** كانت البدايات الأولي للكتابات التاريخية عند المسلمين ؟ وما هي الأسباب والعوامل التي دفعت المسلمين للاهتمام بالتاريخ ؟ وما العلاقة بين الكتابات التاريخية وعلم الحديث؟ ومتي وكيف استقلت الكتابات التاريخية عن العلوم الإسلامية ؟ وماهي العوامل والأسباب وراء التطور في الكتابة التاريخية عند المسلمين في الطريقة والمنهج والأسلوب ؟ وكيف تطوّرت الكتابة التاريخية في القرن الرابع الهجري ؟ وكيف مزج المؤرخون بين التاريخ وعناصر ثقافية أخرى (الجغرافيا والفلك و الفلسفة وغيرها) ؟ وكيف تحددت معالم علم التاريخ من حيث المادة والأهداف والمنهج ؟ ولماذا جرى ذلك التطور ؟ وماهي نتائجه ؟

---

(1) إيمان محمود صالح، الكتابة التاريخية في الأندلس خلال عصر الطوائف (422-503هـ/1031-1110م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس (القاهرة، 2008م)، ص19.

وسيتبع الباحث في هذه الدراسة لتحقيق أهدافها: **المنهج التاريخي** الذي يعتمد على سرد الأحداث التاريخية وتحليلها واستقرائها كل ما أمكن ذلك للوصول إلي نتائج علمية رصينة .

أولاً :-الكتابات التاريخية الأولي عند المسلمين وأسباب اهتمامهم بها

انشغل المسلمون في أول أمرهم بدينهم وبالغزوات والفتوحات وببناء الدولة الوليدة حتى توطدت مكانة العقيدة الإسلامية، فلذلك يلاحظ أن المسلمين لم يهتموا في البداية بالتدوين وانشغلوا عن تذاكر المعطيات التاريخية المبدئية، كأيام العرب وعلم الأنساب والشعر، واهتموا بدلا من ذلك بالقرآن وعلومه، ولكن باستقرار الإسلام وتوطيد أركان دولته وعقيدته أخذ المسلمون يهتمون شيئا فشيئا بأخبار ماضيهم في الجاهلية، لأن أسبابا شتى اقتضت الانكباب على جمع أخبار ذلك الماضي وتدوينها والالتفات عموما إلى أخبار القدماء في جزيرتهم وفي البلاد التي فتحوها[1].

ومن هذه الأسباب حاجتهم إلى تحقيق المناسبات التي نزلت فيها الآيات، والمشاهد التي وردت فيها الأحاديث، ليستعينوا بها على توضيح المشكل وجلاء الغامض منها[2]، كما ظهرت مشكلات جديدة بعد الفتوحات الإسلامية تتعلق **بالإدارة السياسية والمالية** في الأقاليم المفتوحة وهو الأمر الذي دعا للكتابة في الفتوح والذي يعد تأريخاً خاصاً بالولايات الإسلامية، يتناول الحديث عن الإقليم وطريقة فتحه وهل تم ذلك صلحا أم عنوة ؟ وللمساعدة في حل المشاكل المتعلقة به، كذلك كان **لتأسيس ديوان الجند أثره** في دفع عملية التدوين التاريخي فيما يتعلق بأخبار القبائل وأنسابها[3]، هذا بالإضافة إلى وضع عمر بن الخطاب ﷺ التقويم الهجري[4]، تقويما ثابتا، شجع على تدوين الأحداث، أي تأريخها الأمر الذي كان له أثره في عملية الكتابة التاريخية[5].

لقد بدأ المؤرخ المسلم كتاباته التاريخية معتمدا على الرواية المسندة[6]، وكانت هذه الأخبار قد ارتكزت على تقديم الأخبار الطوال حول تاريخ العرب وأبرز ما يمكن الخروج منها، اعتمادها على الروايات المتواترة شفويا، وسيادة عنصر المبالغة والخرافة فيها حتى كادت تفتقر إلى الرابط الموضوعي واقترابها من

(1) مُحَمَّد عبد الكريم الوافي، منهج البحث في التاريخ، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1999م)، ص193.

(2) محمود الحويري، منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات (القاهرة، 2001م)، ص112.

(3) إيمان محمود صالح، المرجع السابق، ص21.

(4) ابن شبة، عمر بن شبة النميري، تاريخ المدينة، تحقيق فهيم مُحَمَّد شلتوت، دار الفكر (إيران، 1989م) 758/2-759.

(5) عبدالعزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ، دار المشرق ،(بيروت ، 1983م)،ص20

(6) السيد عبدالعزيز سالم ، مناهج البحث في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية ، 1967) ، ص75

الخيال إلى حد بعيد[1]. فيبدو أن هذه الروايات التاريخية القديمة كانت ذات طابع أسطوري كما أن حوادثها مرتبكة[2]، ذات طابع قصصي لا يخلو من الحوار والاستشهاد بالشعر[3].

فالنظرة المتفحصة في البدايات التي رافقت ظهور التدوين التاريخي عند العرب، توضح وبجلاء التداخل بين نوعين من الرواية التاريخية هما الرواية الشفوية التي تناقلتها الألسن جيلا بعد جيل وحملت بين ثناياها الكثير من المعطيات الخرافية، واستندت على العقلية الأسطورية والمبالغة في تصوير الأحداث[4]، الأحداث[4]، والتدوين المنظم خلال القرن الثاني الهجري الذي استند إلى الدقة العلمية كما سنرى.

وعلى الرغم مما تضمنته قصص وروايات أيام العرب من خيال ومبالغة وخلط، وعدم التقيد بعنصر الزمن، وعلى الرغم من اصطباغها بالنزعة العصبية، وافتقار قصصها للفكرة التاريخية، إلا أنها تعتبر أحد روافد المعرفة التاريخية وبداية من بداياتها عند العرب قبل الإسلام، ولذا فقد كان لها تأثير كبير في نشأة علم التاريخ فيما بعد[5].

فولادة علم التاريخ عند المسلمين بدأت بهذه الإرهاصات المبكرة التي صنعها الإخباريون منذ بداية الدولة الإسلامية والتي استمر تداولها شفاها إلى أن بدئ في تدوينها في العصر الأموي، ومن المؤرخين الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الإسلام: عبيد بن شريه الجرهمي اليمني[6]، وهب بن منبّه[7]، مُحَمَّد بن

---

(1) اسماعيل الربيعي ،مفهوم التاريخ عند العرب ، مركز الدراسات التاريخية، (طرابلس، 2000م)، ص67.

(2) عفاف سيد صبره ، مناهج التاريخ عند علماء المسلمين ،مؤتمر التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر ،(القاهرة ، 2010) ، ص70

(3) السيد عبدالعزيز سالم ، المرجع السابق ، ص75.

(4) هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين (بيروت، 1979م)، ص144.

(5) مُحَمَّد عبد الكريم الوافي، المرجع السابق، ص182-183.

(6) عبيد بن شرية الجرهمي : راوية من المعمرين ، إن صح خبره فهو أول من صنف الكتب من العرب ، وهو من الحكماء والخطباء في الجاهلية الجاهلية ، أدرك النبي (صلي الله عليه وسلم) واستحضره معاوية من صنعاء إلى دمشق ، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم ، فحدثه ، فأخبره معاوية بتدوين أخباره ، فأملى كتابين سمى أحدهما "كتاب الملوك وأخبار الماضين" " والثاني كتاب الأمثال وعاشه إلى أيام عبدالملك بن مروان وتوفي نحو 67هـ / 686م . = خير الدين محمود الزركلي ، الأعلام ، ط15 ، دار العلم الملايين (بيروت ،2002م) 189/4 .

(7) وهب بن منبه (ت114هـ/732) : وهب بن منبه الابناوي الصنعاني الذماري أبوعبدالله مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة عالم بأساطير الأوليين ولاسيما الإسرائيليات : يعد من التابعين ، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسري إلى اليمن وأمه من حمير ، ولد ومات بصنعاء، ولا عمر بن عبدالعزيز قضاءها ، حبس في كبره وامتحن، من كتبه :" ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم وله : قصص الأنبياء وقصص الأخيار = الزركلي ، المرجع السابق ، 124/8-125.

السائب الكلبي، وابنه هشام الكلبي[1] ، أبو مخنف الأزدي[2]، سيف بن عمر الكوفي الأسدي[3]، المدائني[4] ، الزبير بن بكار[5] .

لقد ولد التاريخ عند العرب في صورة أخبار زمن بني أمية وتم آنذاك تدوين تاريخ الأمم المجاورة القديمة حتى قبل تدوين تاريخ الفتوح الإسلامية، ولم يحدث ذلك خدمة للتاريخ كعلم وإنما استجابة لإلحاح الخلفاء الأمويين الذين رغبوا في الاطلاع على أحوال الأمم التي فتحت بلادها، وكيف كان حال ملوكها في الماضي، ولهذا كان الأمويون يطلقون على التاريخ اسم "علم أخبار الماضين"[6]، أو "أخبار الماضين.

شهد القرن الاول للهجرة اهتماماً خاصاً بدراسة اخبار العرب في الجاهلية والإسلام وأخبار الأمم والشعوب التي اتصلت بهم أو اتصلوا بها، وتألف من هذه الاخبار مجموعة من الكتابات التاريخية وشجع على ذلك ميل بعض الخلفاء كمعاوية بن أبي سفيان إلي الاطلاع على سياسات ملوك الأمم المجاورة الأقدمين ، ومكائدهم وسير حياتهم[7].

---

(1) مُحَمَّد بن السائب الكلبي أبو النضر وهو ابن السائب بن عبد ود وابنه هشام الإخباري النسابة صاحب كتاب الجمهرة في النسب وتصانيفه تزيد على مائه وخمسين تصنيفاً في التاريخ والأخبار وكان حافظاً علامة، إلا أنه متروك الحديث توفي سنة 204هـ ، =الذهبي ، أبوعبدالله مُحَمَّد بن أحمد ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق : مُحَمَّد السيد زعلوك ، دار الكتب العلمية (بيروت . د، ت) 27/1.

(2) أبو مخنف لوط بن يحيي بن سعيد بن مخنف الأزدي الغامدي ، رواية عالم بالسير والأخبار ، إمامي ، من أهل الكوفة ،له تصانيف كثيرة في تاريخ عصره وما كان من قبله بيسير منه : فتوح الشام والردة وفتوح العراق والجمل وصفين والنهروان والأزا رقة والخوارج والمهلب ومقتل علي وأخبار المختار بن عبيد التقي توفي سنة 57هـ / 774م = الزركلي ، المرجع السابق ، 245/5.

(3) سيف بن عمر التميمي الأسدي ويقال الضبي، الكوفي ، صاحب كتاب الفتوح وكتاب الردة وغير ذلك ؛ روى عن طائفة كثير كثير من المجاهيل والإخباريين توفي في حدود 200هـ/815م) = الصفدي خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار احياء التراث(بيروت، 2000م) 182/5.

(4) علي بن مُحَمَّد بن عبدالله المدائني ، راوية مؤرخ ،كثير التصانيف له أكثر من مائتي كتاب ، في أهل البصرة سكن المدائن ثم انتقل انتقل إلى بغداد ولا يزال بها إلى أن توفي سنة 225هـ/840م = الزركلي ، المرجع السابق ، 323/4 .

(5) الزبير بن بكار القرشي الأسدي من أحفاد الزبير بن عوام عالم الأنساب و اخبار العرب ولي قضاء مكة فتوفي عنها ، له تصانيف منها : أخبار العرب وأيامها ، (نسب قريش واخبارها والاوس والخزرج وله أخبار ونوادر في التاريخ توفي سنة 256هـ/870م = الزركلي ، الاعلام ،42/3.

(6) مُحَمَّد عبد الكريم الوافي، المرجع السابق، ص194.

(7) السيد عبدالعزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص143.

وفي **مطلع القرن الثاني للهجرة** يلاحظ الاتجاه نحو جمع الأخبار ورواياتها بشكل متصل منظم حول موضوع أو حادث في إطار كتاب، واعتمد الإخباريون في جمعهم للمواد التاريخية على الروايات العائلية، والروايات القبلية وكل ما كان متداولاً في المِصر، ولم يكن باستطاعة الإخباريين تجاهل السند، ومع أنهم استعملوه بحرية وببعض التساهل إلا أن ازدياد أهميته بالتدريج لدى الإخباريين يظهر اطراد أثر الاتجاه الإسلامي في التاريخ، حيث كان جمع الأخبار جزءً من ظاهرة ثقافية عامة هي ظاهرة جمع الأحاديث والروايات في كل مِصرٍ على انفراد[1].

ثانياً :– الكتابات التاريخية عند المسلمين وعلاقتها بعلم الحديث :

إن العلاقة بين **الحديث والتاريخ وثيقة،** حيث إن علم التاريخ كان في البداية جزءا لا يتجزأ من علم الحديث، حيث واكب ظهوره ذلك[2]. "فعلم التاريخ فن من فنون الحديث النبوي، وزين تقربه العيون حيث سلك فيه المنهج القويم المستوى، بل وقعه من الدين عظيم... إذ به تعلم أهل الجلالة والرسوخ ما يفهم به الناسخ من المنسوخ، ويظهر تزييف مدعي اللقاء ويشهر ما صدر منه من التحريف في الارتقاء، لما تبين أن الشيخ الذي جعل روايته عنه من مقصده كان قد مات قبل مولده أو كان اختل عقله أو اختلط لم يجاوز بلدته التي لم يدخلها الطالب قط"[3].

فبين العلمين علاقة وثيقة إذ اعتمد كل منهما في البداية على **الرواية الشفهية** واعتمد كل منهما على **الإسناد في الرواية،** فالمحدثون اهتموا بالإسناد وهو سلسلة الرواة ومدى اتصاله وصدق رواته، فلا يقبلون حديثا إلا إذا كان رواته موثوق بهم، وقعدوا لذلك القواعد واهتموا بكل ما يتصل بذلك من جرح أو تعديل للرواة، وكذلك بحث **الإخباريون والمؤرخون** في الرواة وعن مدى صدقهم وكذبهم في نقل الأخبار، فالمتأمل في موضوع التاريخ عند المحدثين يجده البحث في رواة الحديث وتاريخهم وكل ما يتعلق بشئونهم، وسائر ما له صلة بتكوين الثقة والحكم عليهم جرحا وتعديلا[4].

---

(1) عبدالعزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص40.

(2) رجاء مصطفى حزين، مدرسة الحديث في المدينة وأثرها في كتابة التاريخ الإسلامي، مؤتمر التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر (القاهرة، 1996م)، ص103.

(3) السخاوي، مُحَمَّد بن عبد الرحمن شمس الدين، الإعلام والتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، 1983م)، ص7. ص7.

(4) رجاء مصطفى حزين، المرجع السابق، ص104.

فالأحاديث تتصل اتصالاً وثيقاً بنشأة التدوين التاريخي عند المسلمين بعد القرآن ، وتعني كلمة حديث في الأصل (الخبر)أو (الرواية الشفوية) في موضوع ديني أو دنيوي ،ثم اتخذت معني خاصاً في الإسلام فصارت تعني أقوال الرسول "ﷺ"[1]، لقد احتل تاريخ ولادة الرواة وتاريخ وفاتهم عند أهل الحديث مكانة هامة لمعرفة اتصال الأسانيد وانقطاعها وفي الكشف عن أحوال الرواة وفضح الكذابين قال سفيان الثوري : "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ " وقال حسان بن زيد "لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ " ،فالتاريخ أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما ،وهذا ما يسمي في اصطلاح المحدثين باسم "مختلف الحديث "وهو علم من علوم الحديث ،وللتاريخ أهمية كبيرة إذ يعتبر أصل في الجرح والتعديل ويستعمله العلماء للرد على الوضّاعين ،يدفعون به الشبهات التي تنسب للحديث ، وعن طريقه يعرف ما يقبل وما يرد من الحديث[2].

وكما حدث في الحديث من العناية بالإسناد في أول العهد عُني برواية التاريخ فدونوه بالأسانيد إلي من عزيت روايته إليه ،فالمؤرخون الأولون من المسلمين اعتمدوا على الروايات الشفوية ،شأنهم في ذلك شأن رواة الحديث .فكل جيل منهم يستمد أخباره من الجيل الذي قبله ،وكان الخبر التاريخي يستمد من السماع عند الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد ،التي اعتبرت وقتئذ وسيلة للإجماع على صحة الخبر ،فالتاريخ عند المسلمين في نشأته أخد نفس الطريقة التي سلكها الحديث[3].

لقد مهدت علوم الحديث لنشأة علم التاريخ ،فعلم التاريخ عند المسلمين بدأ بتدوين السيرة والمغازي النبوية بحسب إتباع نفس منهج الإسناد القائم على محك الجرح والتعديل ،ولذا فإنه يمكن القول بأن علم التاريخ قد نشأ وترعرع في أحضان علوم التاريخ ومناهج الإسناد منذ أن اهتم المسلمون بتدوين هذه الأخبار في منتصف القرن الثاني للهجرة كما مهد تقصى رواة الحديث لنشوء أحد فروع التاريخ وهو تراجم الأشخاص وطبقاتهم[4]، فالعناية بدراسة علم الحديث أدت إلي الدراسات التاريخية .

---

(1) محمد الحويري ،المرجع السابق ،ص111.

(2) رجاء مصطفى حزين ،المرجع السابق ،ص 104 – 105 .

(3) السيد عبد العزيز سالم ،تاريخ الدولة العربية ،مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية ، 2003 م) ،425/2 .

(4) محمد عبد الكريم الوافي ،المرجع السابق ،ص211 .

فالتاريخ عند المسلمين بدأ متأثراً بالحديث وبأسلوب المحدثين، ويبدو أن الكتب الأولي من التاريخ الإسلامي قد اتبع فيها المؤرخون الأوائل نمط المحدثين وأسلوبهم وخاصة الإسناد(1)، فالدراسات التاريخية بدأت بجهود مشتركة تتمثل في حلقات للدراسة ، تحيط كل حلقة بأستاذ وقد يبرز طالب العلم حين يجتاز مرحلة دراسية فيكون حلقته، والدراسة مفتوحة لمن يريد ، والرواية تسير في سلسلة، ونتيجة لذلك وبمرور الزمن تكونت مدرسة في التاريخ والحديث والفقه(2).

وعلى ذلك تميزت الدراسات التاريخية في بداية نشأتها بوجود **اتجاهين مميزين** أحدهما ديني قوامه دراسة الحديث ومركزه المدينة والثاني قبلي كان استمراراً لبعض الأيام وروايات الأنساب في الأسلوب والنظرة ،إذ تناول من الموضوعات المعارك والفتوح الإسلامية وكان مركز هذا الاتجاه البصرة والكوفة(3).

فالاهتمام بأقوال وأفعال الرسول "صلي الله عليه وسلم" للاهتداء بها أو الاعتماد عليها في التشريع وفي التنظيم الإداري وفي شؤون الحياة ضرورة مباشرة وطبيعية لدي أهل العلم، كما أن مغازيه وغزوات أصحابه كانت مصدر اهتمام واعتزاز للمسلمين ، وكانت المشاركة في المغازي عاملاً في رفع المنزلة الاجتماعية وعنصرا في تحديد العطاء، مما قوي الاهتمام بها وسرعان ما صار الصحابة أنفسهم قدوة لمن بعدهم في أقوالهم وأفعالهم فبدأت دراسة مغازي الرسول "ﷺ "(4).

ومن الطبيعي أن تتألف هذه الحركة في المدينة باعتبارها دار الرسول "ﷺ" ودراسة أعماله، ودار السنة التي عاش فيها الصحابة وسمعوا أحاديث الرسول "ﷺ" ورووها بدورهم إلي التابعين(5).

فبدايات التاريخ العلمي بالعربية اقترنت بدراسة سيرة الرسول "ﷺ" ودراسة أعماله، وعليه فإن مصدر هذه الدراسة وموطنها في جمع الحديث وخاصة الأحاديث المتعلقة بمغازي الرسول "ﷺ" **هي المدينة** ، وهو ما يفسر ارتباط المغازي بالحديث هذا الارتباط الذي ترك طابعاً لا يمحى في **المنهج التاريخي** باستخدام الإسناد، وما طرأ من تغير هائل منذ هذه اللحظة في الأخبار التاريخية عند العرب ودقتها المؤسسة على النقد ، وهو ما رسخ الشعور بأن الأخبار وظواهرها تستند إلي أساس تاريخي

(1) محمود عرفة محمود، عبد الرحيم محمد، تابت عبد السهل، دراسات في الحضارة العربية الإسلامية ،مكتبة بن الكثير ،(الكويت،1997م) ص316.

(2) عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ،ص71 .

(3) السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ،ص 66.

(4) عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق، ص22.

(5) السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ الدولة العربية ، 425/2.

قويم[1]، حيث ولدت في فترة مبكرة النظرة الناقدة إلي الرواة أو مصادر المعلومات ، و أُدخل عنصر البحث والتحري في جميع الروايات وكوّن أساساً متيناً للدراسات التاريخية، وقد سميت الدراسات الأولي لحياة الرسول "ﷺ" بالمغازي ، وتعني لغوياً غزوات الرسول" ﷺ" وحروبه ، ولكنها تناولت عصر الرسالة بكامله فهي تجمع بين الحديث والتاريخ وقد قام بها بعض أبناء الصحابة منهم : أبان بن عثمان[2]، وعروة بن الزبير[3] وعبد الله بن أبي بكر بن حزم الأنصاري(ت 135هـ) وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري[4] وابن شهاب الزهري[5]، وهؤلاء أعظم مؤرخي المغازي والسيرة الذي يرجع لهم الفضل في توضيح خطوط السيرة ،وفي تأسيس المدرسة التاريخية في المدينة ومُحَّد بن اسحق(ت 152هـ)[6].

أما **الاتجاه الثاني** فهو مدرسة العراق والتي قامت على النشاط القبلي، والذي برز في مدينتي البصرة والكوفة[7]، وتميزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الإسلامية ودراسة الأنساب- نتيجة طبيعية للصراع الحزبي وللإقليمية القبلية - وفي نفس الوقت وجد في هذه المدرسة كتاباً للسيرة و المغازي منهم معمر بن راشد اليماني البصري (ت150 هـ)[8].

---

(1) هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام ، 126_137

(2) إبان بن عثمان بن عفان القرشي أول من كتب في السيرة النبوية شارك في وقعة الجمل مع عائشة توفى سنة 105هـ/723م = الزركلي ، المرجع السابق ،27/1.

(3) عروة بن الزبير بن عوام الأسدي أحد الفقهاء السبعة بالمدينة انتقل إلي البصرة وعاد إلي المدينة فتوفى فيها سنة 93هـ/712م = الزركلي ،المرجع السابق ،26/4 .

(4) عاصم بن عمرو بن قتادة بن نعمان الأنصاري شيخ مُحَّد بن إسحاق إخبارياً علامة بالمغازي ، توفى سنة 120هـ = الذهبي ،المصدر السابق ،116/1.

(5) مُحَّد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري من بني زهرة بن كلاب أول من دوّن الحديث تابعي من أهل المدينة نزل بالشام واستقر بها توفى سنة 124هـ/742م= الزركلي ،المرجع السابق ،97/7.

(6) عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ،ص23 ؛السيد عبد العزيز سالم ،تاريخ الدولة العربية ، 425/2.

(7) إسماعيل نوري الربيعي ،مفهوم التاريخ عند العرب ،ص70 .

(8) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية ، 427/2 .

لقد شهد القرن الثاني للهجرة ، نشاط الإخباريين واللغويين والنسابين كلاً في حقله ويمثل الإخباريون خط الدراسة التاريخية[1]، ومن أشهر كتّاب هذه المدرسة أبو مخنف لوط بن يحي الأزدي ، وسيف بن عمر الكوفي الأسدي وعوانة بن الحكم الكوفي[2]، ومُحَّد بن السائب الكلبي[3]

وفي هذه الفترة وجد نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار ، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية المهمة ،إخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها مثل أبي مخنف سالف الذكر وهو الذي كتب أخبار العراق ،و المدائني الذي كتب أخبار خراسان و الهند ، والواقدي الذي دون أخبار الحجاز[4].

إن **التاريخ بدأ عند المسلمين على أنه فرع من علم الحديث** ،حيث تأثر بطريقة وأسلوب المحدثين في جمع الرواة التاريخية ،ونقدها فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الرواة و يدونونها مع إسنادها غلي مصدرها الأصلي ، وهذا المصدر قد يكون شخصاً عرف بالعدل ،له علم مباشر واضح بالواقعة المرورية ،فكان النقد عندهم منصباً على الرواة لا موضوعياً منصباً على المرويات ،واتبعوا أيضاً طريقة علماء الحديث ،علم الجرح والتعديل ذاتياً في تدارس كتب التاريخ وتلقينها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعاً و إجازة ،بل أكثر من ذلك جمعوا المرويات أو الروايات ورتبوها بحسب موضوعاتها في شكل رسائل أو كتب تشبه أبواب الحديث[5].

وإذا كان التدوين التاريخي للعرب قد خضع في مرحلته الإخبارية لبعض المعطيات الأسطورية والخرافية وللتأثر بعض الشيء بالإسرائيليات ،ثم خضع في مرحلة تالية لتأليف السيرة النبوية ولعلم الحديث ومناهجه ومصطلحه ودار في فلكه كأحد العلوم المساعدة التي كان هدفها الأساسي معرفة رجاله وفقهائه ،فإن هذا العلم أخد منذ مطلع القرن الثالث الهجري يتحرر من ربقة الروايات الأسطورية

(1) عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ،ص38

(2) عوانة بن الحكم بن عوانة بن عياض من بني كلب ،أبو الحكم ، مؤرخ من أهل الكوفة ،ضرير،كان عالماً بالأنساب والشعر ومهتم بوضع الأخبار لبني أمية له كتاب :في التاريخ وسيرة معاوية ، توفى 147هـ/764م = الزركلي ،المرجع السابق ، 93/5.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية ،427/2 _428 .

(4) السخاوى ، المصدر السابق ، ص 19.

(5) ابن خباط ، خليفة بن خباط الليثي ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، وزارة الثقافة (دمشق ،1968م) ص52

ومن سيطرة الفقهاء الذين رأوا منه مجرد تتمة ضرورية لمنظومة العلوم الدينية المكرسة لخدمة القرآن والحديث والفقه[1].

وفي علاقة التاريخ بالعلوم الإسلامية يقول **السخاوي** : " أما فائدة التاريخ فمعرفة الأمور على وجهها ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما ، إما بالإضافة لوقت متأخر كرأيته قبل أن يموت بعام او نحوه ، أو عن صحابيه متأخر وقد يكونه بتصريح الراوي كقوله : كان آخر الأمرين من النبي" صلي الله عليه وسلم " من ترك الوضوء مما مست النار"[2].

ففي القرن الثلاثة الاولي من الهجرة لم يدون المؤرخون المسلمون تعريفاً لعلم التاريخ و إنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه ."يقول خليفة بن خياط "هذا كتاب التاريخ وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدة نسائهم ومهل ديونهم "[3].

ثالثاً :- استقلال الكتابات التاريخية عن العلوم الإسلامية و أسبابها :

ومنذ بداية القرن الثالث الهجري وحتى أوائل القرن الرابع أخذت تظهر بدايات التأليف التاريخي بمعناه الواسع و أخد العلم التاريخ يستقل على العلوم الإسلامية ،ونلاحظ **زيادة جوهرية في حجم المادة التاريخية وازدياد مصادرها وتنوع موادها واتساق مناهج تأليفها وصارت المعرفة التاريخية تطلب لذاتها ،لا لخدمة علم آخر من العلوم** ،وصار الهدف فن كتابة التاريخ علماً كرسّ نفسه لخدمة هذه الدولة القوية وتسجيل مآثرها ورصد أحداثها كبيرها وصغيرها[4].

وقبل دراسة هذا التطور في الكتابة التاريخية من حيث الطريقة والمنهج والأسلوب يجب التنبيه أولاً لمجموعة من **العوامل والأسباب التي أدت إلي هذا التطور** :

(1)عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ،ص24 .

(2) المرجع نفسه ،ص24 -25 .

(3) مُحَمَّد عبد الكريم الوافي ،المرجع السابق ، ص247-248 .

(4) المرجع نفسه ،ص232-248

- حيث شهدت هذه المرحلة نشاطاً دبَّ في أوصال الأمة الإسلامية ابتداءً من القرن الثالث الهجري في مجال التأليف والتصنيف في شتي فروع العلم ،ومن بينها التأريخ بفعل الحافز الجديد الذي تولدّ في ارتفاع مستويات الثقافة المادية في نواحي عديدة بالاطلاع والانتقادات(1).
- انتفاع المؤرخين بما عثروا عليه من مخلفات الدولة الأموية وعهد الخلفاء الراشدين قبلها ، وما تبقي عنهم من سجلات ووثائق تتضَّمن مراسلاتهم السياسية ومعاهداتهم الرسمية وانتفعوا أيضاً بما وجدوه مدوناً من أحداث القرن الأول للهجرة ،وما صادفوه من تراجم أو روايات عن كبار الشخصيات من خلفاء وقوّاد وعمال و قضاه ،وولاة و أمراء للحج إلي جانب أوصاف الحروب والفتوحات و وقائع الغزو(2).
- احتكاك المسلمين بشعوب وأمم لها تاريخ عريق ،أدي إلي عناية العرب بإبراز تاريخهم و الكتابة على فتوحاتهم وانتصاراتهم ،وحضارتهم القديمة والجديدة في ظل الإسلام وانتشاره وشجعهم الخلفاء وحكام الأمصار الإسلامية عليها(3).
- كما زادت المادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية خاصة دواوين الإنشاء ،والخراج والجند والبريد ،ما أمكن لرجال التاريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات .فاحتوت كتابات القرن الثالث على عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ومعلومات غزيرة من رجال كبار الدولة من وزراء والقادة وعمال الولايات(4).
- سهولة الانتقال في أنحاء الدولة الإسلامية شجع الرحلة في طلب العلم وهي حركة بدأ أهل الحديث في سبيل جمع الأحاديث وتصنيفها وهذه الاتصالات أدت إلي تبادل الأثير من ناحية الأسلوب والنظرة التاريخية(5).
- ظهور واتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلي العربية ،وتشجيع الخلفاء على ازدياد على ازدياد هذه الحركة في العالم الإسلامي، فترجمت المؤلفات الفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية

---

(1) سعد بدير الحلواني ، تأريخ التأريخ – مدخل إلي علم التاريخ ومناهج البحث فيه، ط2، دار ضياء(السعودية ،1999 م) ص 78.

(2) محمد عبد الكريم الوافي ،المرجع السابق ،ص232 .

(3) سعد بدير الحلواني ،المرجع السابق ،ص 78 .

(4) يسري عبد الغني عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن 12 ، دار الكتب العلمية(بيروت ،1991م) ص 25.

(5) عبد العزيز الدوري ،المرجع السابق ، ص 78 .

وغيرها . الأمر الذي ساعد على إطلاع المسلمين على ثقافات الأمم الأخرى وطريقتهم ومنهجهم في الكتابة التاريخية مما دفع المسلمين لصهر كل هذه المناهج والثقافات والمعارف في بوقعه إسلامية خالصة أنتجت التطور والمنهج العربي الإسلامي(1).

- وكان لاستخدام الورق الأثر العظيم في تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين ، ولا سيما بعد تأسيس أول مصنع للورق في بغداد سنة 178هـ /794م، و به شاعت الكتابة.
- كما استلزم النظام العطاء الجديد والجند الذي رُتب حسب الأنساب وحسب الأسبقية في الإسلام ، أن تكون هناك مدونات ثابتة ساعدت كمصادر على الكتابة التاريخية ولا سيما كتب الطبقات(2).

إنَّ **تطور الكتابة التاريخية يعتبر جزءاً حيوياً من التطور الثقافي** ،فالروايات المبعثرة في الأخبار والحديث والأنساب صارت تجمع ، وظهر التاريخ بصورة ثابتة حين بدأ استعمال الكتابة لحفظ الأخبار و الروايات(3)، وكثرت المادة التاريخية فاتجه الكثير من العلماء و ثقاف المؤرخين لدراسة التاريخ والتأليف فيه ثم أخد التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجلّ علوم المسلمين(4)، وظهر المؤرخون الكبار الذين أفادوا من كتب الأخبار ،فأعادوا تنظيم مادتها ودمجوا بينها في مصنفات كبيرة ، وسميت بكتب التاريخ وقد تميزت بشمولها لأحداث الدولة الإسلامية دون الاقتصار على إقليم بعينه كما تميز معظمها باتباع نظام الحوليات ،كما ظهر التصنيف في الموضوعات الخاصة كتواريخ المدن أو كتب تراجم الخلفاء والوزراء والقضاة والكتاب والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم ، أو كتب الإدارة والنظم أو كتب البلدان والمسالك أو كتب الأنساب(5).

ومجمل القول أنه أضحى لهذا العلم رجاله و متخصصوه ،وصارت اهتماماته أوسع من ذي قبل ،فلم تعتد تقتصر على تدوين أحداث مرحلة النبوّة أو مرحلة الخلفاء الراشدين بل تجاوزت ذلك إلى رصد كل ما يمس نشاطات الدولة وكل أحداثها ومراحل تطورها ،وهكذا قفر مفهوم التاريخ منذ القرن

(1) سعد بدير الحلواني ،المرجع السابق ،ص 80 .
(2) المرجع نفسه ،ص 80.
(3) عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص 65.
(4) يسرى عبد الغني عبد الله، المرجع السابق ،ص 26.
(5) أكرم ضياء العمري ، موارد الخطيب البغدادي ، دار طيبة (الرياض ،1985م) ص 123.

الثالث للهجرة من مجرد علم ينصّب على الأخبار الجاهلية وعلى السير و المغازي و الطبقات و الفتوح إلي علم يشمل التواريخ العامة سواء تاريخ الأمة الإسلامية أو تواريخ الأمم الأخرى ،فدوّن المؤرخون الذين لا يحصى عددهم أحداث و أخبار الدولة العربية الإسلامية بكل تفصيلاته(1).

رابعاً : تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين في القرن الرابع الهجري :

لقد شهد القرن الرابع استقلال علم التاريخ واكتمال نضوجه، حيث اعترف به كعلم بعد أن كان لا يدخل في جملة العلوم ،حيث انفصل عن علم الحديث، فقد تخلي علم التاريخ عن طريقة المحدثين في التوثيق ،وهي طريقة الإسناد التي شاع استخدامها في كتب التاريخ قبل انفصال التاريخ عن علم الحديث(2)، فقد كانت الشهادة على سماع الخبر من الرسول "ﷺ" والشهادة على السماع أول خطوة من خطوات الإسناد وهي التي مهدت لقيامه بعد ذلك وعنها تطور، يقول ابن سيرين (ت110 هـ):"(3) لم يكونوا يسألون عن الإسناد ،حتى وقعت الفتنة ،فلما وقعت نظر من كان من أهل السنة أخذوا حديثة ومن كانوا من أهل البدعة تركوا حديثة " .فالإسناد لم يظهر فجأة وإنما تدّرج مع العصر وطال بطول الزمان ،وكلما قرب العهد بالمصدر الأصلي للخبر لم تكن هناك حاجة باعثة على التزام الإسناد ،فحسب الراوي أن يعزى الخبر إلي قائله ،ومن ثم لم ينتشر في عصر الصحابة ولا كبار التابعين(4).

وبما أن أغلب المؤرخين كانوا من علماء الدين واللغة لذا فقد تأثر فكرهم أو منهجهم التاريخي بخلفياتهم الثقافية والتي كانت دينية في المقام الأول لذا فقد استخدموا منهج الإسناد في الكتابة التاريخية ولكن في القرن الرابع الهجري ازداد الاتجاه في التخلي عن هذا المنهج من خلال إسقاط الأسانيد و العناية بالمتن(5).

---

(1) مُحَمَّد عبد الكريم الوافي ،منهج البحث في التاريخ ،ص 248-249 .

(2) غادة كمال السيد، مسكويه مؤرخا، رسالة دكتوراه في التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس (القاهرة ،2009 م) ص 24-26.

(3) مُحَمَّد بن سيرين البصري، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة تابعي من أشراف الكتاب تفقه وروي الحديث ينسب له كتاب (تعبير الرؤيا) .توفي سنة 110هـ/729م = الزركلي ،المرجع السابق 154/6.

(4) عثمان موافى ،منهج النقد التاريخي الإسلامي، والمنهج الأوروبي، دار المعرفة الجامعية (الاسكندرية ، 1996) ص 36-38.

(5) غادة كمال عبد السيد ،المرجع السابق ،ص26.؛ صائب عبد الحميد ،علم التاريخ ومناهج المؤرخين ، (بيروت – 2001م) 2001م) ص 151 .

إنّ سقوط الإسناد الذي كان يتقدم الأخبار مسنداً ما فيها إلي رواتها ،راوية بعد راوية هو إعلان للتاريخ باستقلاله عن علم الحديث **وقد أسهم في الوصول إلي هذه المرحلة عدد من العوامل منها** :

- انتشار الورق والمخطوط المكتوب[1].
- تثبت حقائق الأحداث التاريخية التي تمسُّ تاريخ القرون السابقة ،حيث لم يعد هناك من سبب إلي تكرار الأسانيد والعنعنات بالنسبة لكل حدث تاريخي ،إذ أن الطبري منذ القرن الرابع الهجري ،قد تكفَّل في كتابه "الرسل و الملوك " بتقصي الأسانيد التاريخية على نحو لم يعد بحاجة إلي تأكيد من قبل المؤرخين التالين عنه[2].
- عدم ترتب أمور فقهية شرعية أو حياتية هامة على التاريخ المدوَّن بعكس ما كان من قبل يستوجب تحري الدقة في التدوين والصحة[3].
- أنتشار التدوين بحيث أصبح المؤرخ المسلم يعتمد في كتاباته التاريخية إلي جانب الذاكرة والحفظ على الكتب التاريخية التي سبقه في كتابتها المؤرخون الأولون .ولم يلبث المؤرخ المسلم أن تحرر تدريجياً من طريقة الإسناد التي كانت تلزم المؤرخ بأن يكون مجرد إخباري (أي ناقل للخبر) ،إلي الكتابة المرسلة التي تعني بالخبر ذاته ومناقشته[4].
- الرغبة في الاختصار مع تضخم المادة المتزايد وعدم مطالبة الناس بسند للحدث التاريخي يوازي تشددهم في تطلب السند للحديث النبوي[5].
- أصبحت الوثائق مصدراً ومرجعاً أساسياً لأغلب مؤرخي القرن الرابع الهجري ، لأن كثيراً منهم كانوا يعملون في دواوين الدولة وفي البلاط السياسي ،على نحو يسير لهم للاطلاع على هذه الوثائق[6].

---

(1) شاكر مصطفي ،التاريخ العربي والمؤرخون ،ط2 ، دار العلم للملايين (بيروت-1980م) 378/1.
(2) محمد عبد الكريم الوافي ،المرجع السابق ، ص 213.
(3) شاكر مصطفي ،المرجع السابق ،378/1.
(4) السيد عبد العزيز سالم ،التاريخ والمؤرخون العرب ،ص 75.
(5) شاكر مصطفي ،المرجع السابق ، ط1، ص 378.
(6) غادة كمال السيد ،المرجع السابق ،ص 27 .

- انصراف التاريخ إلي أمور الدنيا .فبعد أن كان يتخذ المسوغ الديني سبباً لوجوده ،سلك جانب آخر ،وهو القيمة الأخلاقية لدراسته ،أي أنه يخلد ذكر الأعمال الصالحة والسيئة لتكون عبرة الأجيال المقبلة[1].

وقد حاول العديد من المؤرخين الإبقاء على إشارة موجزة في مطلع الخبر تشيد إلي المصدر، وكانت خطوة هامة نحو التوثيق التاريخي المستقل بأن يلتزم المؤرخ بذكر المصادر التي نقل عنها أخبارهم ونصوصهم ،فبعضهم كان يعزو كل خبر إلي المؤلف أو الكاتب الذي أخد عنه بشكل موجز قد يقتصر على كلمتي "قال فلان" في أحيان كثيرة ،وبعضهم استغني عن الإسناد في صلب الكتاب ،وجمعها جميعاً عند مقدمته في سلاسل وجعلها المصدر الإجمالي لما يرويه ،وبعضهم يجمع في أسماء الكتب التي اعتمدها ويضعها في المطلع[2].

لقد ظهر فريق من المؤرخين المسلمين ابتعدوا في كتاباتهم عن طريقة الإسناد واكتفوا بإيراد الخبر غير مسند إلي صاحبه .وكان هؤلاء يكتفون بذكر مصادرهم التاريخية في مقدمات كتبهم مع دراستها في بعض الأحيان دراسة نقدية[3]، فكانوا يصفون الكتاب المخطوط ومكان وجوده وأحياناً اسم ناسخه واسم من يملك الكتاب أو من أهداه أو أعاره[4].

فبعد انتشار التدوين وتمكن التاريخ في النفوس فإن الرواية المسندة لم تعد مصدرًا كافيًا للكتابة التاريخية، وأبدلت الأسانيد بالكتب وهو ما عرف بالتاريخ السندي أو أسانيد الكتب، وفي ذلك تطور علمي واضح في اتجاه الموضوعية التاريخية، لاسيما وأن المؤرخين المسلمين في أي وقت لم يكونوا يستطيعون أن يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها أخبارهم، فكان حرص المؤرخين المسلمين على ذكر الكتب التي استقوا منها أخبارهم في معظم تآلفيهم إضافة جديدة لإبداعهم في هذا العلم[5].

---

(1) هاملتون جب ،دراسات في حضارة الإسلام ،ص 147.

(2) شاكر مصطفي ،المرجع السابق ، ص 378 - 379.

(3) السيد عبد العزيز سالم ،التاريخ والمؤرخون العرب ،ص75-76.

(4) شاكر مصطفي ،المرجع السابق ،379/2؛ غادة كمال السيد ،المرجع السابق، ص27 .

(5) أنور مُحَمَّد زناتي، علم التاريخ واتجاهات تفسيره، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 2007م)، ص17.

إن تخلي التاريخ عن السند واستغنائه عنه لا يعني إهمال التوثيق وتحري الدقة في النقل وإنما انتهج بذلك طرائقه الخاصة على نحو أدي إلي تطور الكتابة التاريخية ،فلم يهمل المؤرخون ذكر مصادرهم إهمالاً تاماً إلا في الموجزات الحولية والمختصرات للتواريخ العامة(1).

وفي القرن الرابع تطور الفكر التاريخي حيث انفصل علم التاريخ عن علم الحديث وارتبط ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة والمنطق والفلك وغيرها من العلوم التي تطورت خلال هذا القرن حيث تم الربط بين التاريخ والفلسفة ،كما استخدم علم الفلك في تأريخ بعض الأحداث التاريخية ،ومزج علم التاريخ بعلم السياسة(2).

لقد تحددت معالم علم التاريخ في القرن الرابع سواء من حيث المادة أو الأحداث التاريخية ،فمن حيث المادة فإنها تعددت بتعدد المراكز السياسية في البلاد الإسلامية(3)، واختاروا مادة التاريخ بعد النقد في مختلف المصادر ،ونظموها في كتب خاصة طبق أسلوب تارة هو حولي وتارة يتبع الأنساب وثالثة يختار موضوعه اختياراً في الحوادث المختلفة ، وامتازوا بفهمهم للتاريخ بالمعني الشامل ،فأفقهم في الجملة عالمي ،والإسلام عندهم أمة واحدة ،والاتجاه القبلي أو الديني عندهم ضعيف أمام قوة العملية التاريخية(4).

كما أدي تنظيم الدواوين إلي إحلال طبقة الكتاب وجلساء الخلفاء في الدرجة الأولي بين الثقاف في التاريخ السياسي ،وإلي وضع علماء الدين في المرتبة الثانية ،فقد أصبح تدوين التاريخ السياسي في منتصف القرن الرابع الهجري ،في الغالب ،مهمة الموظفين والمقربين في البلاط ،وقد أثر هذا التغيير في الشكل والموضوع و الروح على سواء ،وكانت كتابة التاريخ للأحداث الجارية عملية سهلة مسلّية لذوي الخبرة من الكتّاب ورجال الدين ،وكانت مصادر أخبارهم هي الوثائق الرسمية والاتصالات الشخصية ،وما يدور من حديث بين الموظفين والمقربين في البلاط ،مما اقتصر الإسناد فيها إلي إشارة موجزة إلي المصدر ،واستبعد المفهوم الديني القديم ،الذي كان قد أسبغ على التاريخ سعة الأفق والاحترام .وجنح

(1) شاكر مصطفي ،المرجع السابق ،380/2 .

(2) غادة كمال السيد ،المرجع السابق ،ص24 – 25 .

(3) محمد نصر مهنا، التدوين التاريخي ودور المخطوطات السياسية في العالم الإسلامي ،ط1،(القاهرة- 1966م) ص 92.

(4) شاكر مصطفي ،المرجع السابق ،202/1.

التاريخ الحولي ؛إلي تركيز الاهتمام في أعمال الحاكم والحاشية ،ومن ناحية أخرى فالأخبار في مؤلفات الكتاب عن الأحداث الخارجية في ذلك العصر صادقة بوجه عام[1].

وكان طبيعياً أن تكون بغداد بسبب مكانتها السياسية والدينية والعلمية أكبر مركز للتدوين التاريخي في المشرق الإسلامي لأنه ما في عالم كبير إلا رحل إليها في طلب العلم أو قصدها ،ليشتهر ويعرف على النطاق الإسلامي الأوسع[2].

وكما تطورت الكتابات التاريخية من حيث الطريقة تطورت من حيث الأسلوب ،فبعد أن كانت تجمع في معظمها ؛في صورة جمل قصيرة جافة لا ترتبط فيما بينها بصلة تطور الأسلوب إلي أن أصبح مرسلاً بسيطاً سهلاً تجنب فيه الزخرفة اللفظية والألفاظ الدارجة ،واهتم بإبراز المادة التاريخية في عبارات توضح المعني المقصود في براعة يستسقيها القارئ ، ويظهر عليها الوضوح ،وخلا كذلك من الأشعار التي كانت تفصل أحياناً سياق الأحداث التاريخية[3]، وعمد بعض المؤرخين إلي الجمع بين الكتابة المرسلة السهلة وبين العبارات المسجوعة[4].

إن اهتمام الناس بعملية التدوين التاريخي و إقبالهم عليها كان في الواقع جزءاً من تلك الفعاليات الواسعة التي شملت جميع نواحي الحياة وجميع فروع المعارف في ذلك القرن ،الذي يمكن أن يعتبر فترة الأوج والنضج في الحضارة العربية الإسلامية[5].

لقد نشطت الكتابات التاريخية تشاطاً عظيماً ،فمن كتابة في تاريخ السيرة النبوية ،إلي كتابة في الأحداث الإسلامية و الأمم والدول ،وكتابة في المدن وكتابة في التراجم والطبقات ، وألفت كتب في الوزراء وكتّاب الدواوين وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم وكانوا لا يتركون في التاريخ جانباً إلا رصدوه وسجّلوه ودوّنوه[6]، فزادت المؤلفات التاريخية لازدياد الموضوعات المطروقة حيث بدأ الاهتمام بدراسة التاريخ ،فظهرت مؤلفات في فن القصص التاريخ وكتب الديارات التي تدخل في إطار موضوعات التاريخ

(1) هاملتون جب، المرجع السابق ،ص 144- 146.

(2) شاكر مصطفي، المرجع السابق ،273/1.

(3) السيد عبد العزيز سالم ،التاريخ والمؤرخون ،ص 77-78 .

(4) سعد بدير الحلواني ،تأريخ التاريخ ،ص77 .

(5) شاكر مصطفي ،التاريخ العرب والمؤرخون ،ط274/1.

(6) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ،ط13،دار المعارف (القاهرة ،1973م) 3/ 157 – 158 – 160

الحضاري ،فضلاً عن الكتب الخاصة بأخبار الهدايا و التحف إلي ما كتب عن أخبار الفروسية والحرب والسلاح(1).

كما جري الاهتمام بموضوعات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي من قبل بعض المؤرخين وعرضت كتب الخراج و الأموال، وكتب الأحكام السلطانية للنظم الاقتصادية جنباً إلي جنب النظم السياسية والإدارية والعسكرية، بالإضافة إلي بعض المؤلفات التي تناولت أحد الجوانب الاقتصادية فالسكة والنقود أو الموازين والمكاييل ،وظهر الاهتمام بالبعد الاجتماعي في بعض المؤلفات التاريخية التي تناولت أخبار الطبقات ولا سيما طبقات العامة فضلاً عن الأخبار الخاصة بعادات وتقاليد المجتمع وغيرها من المظاهر الاجتماعية (2).

ومع هذا التطور والتنوع في الكتابات التاريخية عند المسلمين إلا أنهم لم يسلموا من انتقادات في منهجهم ومن ذلك وما قيل عن فقدان روح النقد في كتاباتهم، و إذا علمنا منهج المؤرخين المسلمين في كتاباتهم بطلت هذه الانتقادات ،فالمؤرخ المسلم في ذلك العصر كانت مهمته تقتصر في الأغلب على النقل الأمين ومن ثمّ غلب الطابع الروائي على كتاباتهم التاريخية وأصبح التاريخ عندهم مجرد راوية لأحداث الماضي، فحسب المؤرخ عندهم صدق النقل و أمانته ،فالمؤرخ الذي يقوم عمله على نقل الأخبار بلا تفسير و نقد ،يقدم لمن خلفه ضمان الإخلاص والعدل ،أكثر مما يقدم لنا الكاتب الذي يعرض الوثائق ممحصة أو مشوّهه وحق ما يعتقده عن حسن نية أو عن غرض عن صدق أو كذب(3).

يقول الطبري: "... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضيين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ،من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معني من الحقيقة .فليعلم أنه لم يأت في ذلك من قبلنا .وإنما أوتي من قِبل بعض ناقليه إلينا .وإنما أدينا ذلك على نحو ما أؤدي إلينا ..."(4).

وفي ذلك يقول مؤلف كتاب منهج النقد التاريخي الإسلامي: " وإحقاقاً للحق ،فإن هذا الحكم ينطبق على المعرفة التاريخية بصفة عامة في العصور الوسطي ،لا المعرفة التاريخية الإسلامية ،فحسب .ومرد هذا .اتصال المعرفة التاريخية بالمعرفة الدينية منذ نشأتها في البيئة الإسلامية بصفة خاصة ،واتصالها بفلسفة

(1) غادة كمال السيد، مسكويه مؤرخاً ،ص 24- 25.

(2) المرجع نفسه ،ص 25- 26.

(3) عثمان الوافي ،منهج النقد التاريخي الإسلامي .ومنهج الأوربي ، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية ،1996م) ص223 .

(4) الطبري ،مُحَّد بن جرير :تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق :مُحَّد أبو الفضل إبراهيم ،دار المعارف (القاهرة ، 1960 م) ،ط1، ص ص 8.

الأديان في العصور الوسطي بصفة عامة ،والمعرفة الدينية على كل حال ،معرفة نقليه تثبت بالنقل و السماع وتتطلب القبول والتسليم ،وعلى هذا فهي ليست في حاجة إلي نقد لأنها فوق النقد ،فتشرب كثيراً من المؤرخين روحه وفلسفته ،وطبقوا كثيراً من القواعد و الأصول وإن اختلفت درجة دقتهم في التطبيق ؛تبعاً لاختلاف نوع الخبر وأهميته وفترته الزمنية"[1].

خلاصة:

وأخيرًا نخلص إلى القول: بأن القرون الثلاثة الأولي للهجرة كانت فترة التكوين لعلم التاريخ عند المسلمين، فيها وضعت خطط كتابة التاريخ وأساليبها، وقد شهد القرن الرابع عناصر ثقافية أخري مثل الجغرافيا و الفلسفة و الفلك تؤثر في كتابة التاريخ فتحددت في هذا القرن معالم علم التاريخ سواء من حيث المادة أو الأهداف أو المنهج وصار علماً مستقلاً بين العلوم الإنسانية والإسلامية الأخرى مسجلاً طوراً جديداً في تلك المسيرة ومتأثراً بنمو العلوم الأخرى[2].

وفي هذا القرن تطورت الكتابة التاريخية عند المسلمين لتتخذ أبعادًا أخرى، وبمنهجية تقوم دراستها على طريقتين ومنهجين هما: الحولي (العمودي)، وهي أن المؤرخ يبتدئ التاريخ منذ الخليقة أو منذ الميلاد أو ظهور الإسلام، حتى ينتهي بعصره، فهي طريقة تصاعدية في تناول حوادث التاريخ، والثاني الموضوعي (الأفقي) وهو الذي تقوم دراسته بشكل يتوزع على المكان أكثر من توزعه على الزمان، فهو يدرس شرائح منتخبة من الناس موزعة على المجتمع الإسلامي في امتداداته العرضية في ديار الإسلام.

إن منهج البحث التاريخي عند المؤرخين المسلمين يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكامل وأنهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه وأكثروا، إلى درجة أن فاقوا من تقدمهم، ولم يلحق بهم من عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره، وهي الصدق في القول والنزاهة في الحكم، وبذلك يكون المؤرخ المسلم هو الذي وضع الأصول الأولى لمنهج البحث التاريخي العلمي الحديث الذي بدأ ناضجًا في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي، وهم الذين تركوا بتلك الأصول أثرهم في مؤرخي أوروبا مطلع العصور الحديثة الذين شرعوا بدورهم منتهجين في الكتابة التاريخية طريقة النقد والتمحيص والتدقيق.

---

(1) عثمان الوافي ،المرجع السابق ،ص 223.

(2) عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ ،68 ؛ مُحَمَّد نصر مهنا، التدوين في التاريخ ، ص92 ؛ غادة كمال السيد، مسكويه مؤرخا، ص25 ؛ شاكر مصطفى ،التاريخ العربي القديم ،268/1 .

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر:

ابن خياط، خليفة بن خياط الليثي (ت240هـ/854م)

- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، وزارة الثقافة (دمشق، 1968م).

ابن شبه، أبو زيد عمرو بن شبه النميري (ت262هـ/875م)

- تاريخ المدينة، تحقيق فهيم مُحَمَّد شلتوت، دار الفكر (إيران، 1410هـ).

الذهبي، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت478هـ/1347م)

- العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر مُحَمَّد بسيوني، دار الكتب العلمية (بيروت، د.ت).

السخاوي، مُحَمَّد بن عبد الرحمن شمس الدين (ت902هـ/1496م)

- الإعلام والتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، 1983م).

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362م)

- الوافي بالوفيات، ط1، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت، 2000م).

الطبري، مُحَمَّد بن جرير (ت310هـ/922م)

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (القاهرة، 1960م).

مسكويه، أبي علي أحمد بن مُحَمَّد (ت421هـ/1030م)

- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية (بيروت، 2002م).

ثانياً: المراجع :

إسماعيل نوري الربيعي:

- مفهوم التاريخ عند العرب، مركز الدراسات التاريخية (طرابلس، 2000م).

أكرم ضياء العمري:

- موارد الخطيب البغدادي، دار طيبة (الرياض، 1985م).

خير الدين محمود الزركلي :

- الأعلام ،ط15، دار العلم للملايين (بيروت ، 2002م) .

رجاء مصطفى حزين:

- مدرسة الحديث في المدينة وأثرها في كتابة التاريخ الإسلامي، مؤتمر التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر (القاهرة، 1996م).

سعيد بدير الحلواني:

- تأريخ التاريخ، مدخل إلى علم التاريخ ومناهج البحث فيه، ط2، دار ضياء (السعودية، 1999م).

السيد عبد العزيز سالم:

- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 2003م).
- التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة (بيروت، 1986م).
- مناهج البحث في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 1967م).

شاكر مصطفى:

- التاريخ العربي والمؤرخون، ط2، دار العلم للملايين (بيروت، 1980م).

صائب عبد الحميد:

- علم التاريخ ومناهج المؤرخين، ط1 (بيروت، 2001م).

عبد العزيز الدوري:

- نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق (بيروت، 1983م).

عثمان موافي:

- منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية، 1996م).

عدنان ملحم:

- المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (القرن الأول – القرن الرابع)، ط2، دار الطليعة (بيروت، 2001م).

عفاف سيد صبره:

- مناهج التأريخ عند علماء المسلمين، مؤتمر التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر (القاهرة، 1996م).

فاروق عمر فوزي:

- الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع (الأردن، 1998م).

مُحَّد عبد الكريم الوافي:

- منهج البحث في التاريخ، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1999م).

مُحَّد نصر مهنا:

- التدوين التاريخي ودور المخطوطات السياسية في العالم الإسلامي، ط1 (القاهرة، 1966م).

محمود عرفة محمود، وعبد الرحيم مُحَّد، نايف عيد السهل:

- دراسات في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة ابن كثير (الكويت، 1997م).

هاملتون جب:

- دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، مُحَّد يوسف نجم، محمود زايد، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة، 2011م).

يسري عبد الغني عبد الله:

- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن 12، دار الكتب العلمية (بيروت، 1991م).

ثالثاً: الرسائل العلمية:

إيمان محمود صالح:

- الكتابة التاريخية في الأندلس خلال عصر الطوائف (422-503هـ/1031-1110م) رسالة دكتوراه بكلية الآداب، جامعة عين شمس (القاهرة، 2013م).

سمر بنت عبد الله الأحمدي:

- المؤرخون في القرن الرابع الهجري من خلال كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، رسالة ماجستير، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى (مكة المكرمة، 2009م).

غادة كمال السيد:

- مسكويه مؤرخاً، رسالة دكتوراه في التاريخ، بكلية الآداب، جامعة عين شمس (القاهرة، 2009م).